تنطع النحويين

وإعراب « لا ابا لك »

لي صديق من طلبة العلوم العربية نهك قواه واستغرق جميع اوقاته في تحصيل فن النحو بحيث لم تسمح له نفسه بان يهب منها ساعة واحدة للاشتغال بغيره من بقية العلوم جاعلاً دأبه وديدنه البحث والتنقيب عن فلسفة النحاة وتنطعهم في الكلام زاعماً « كما لقنه بعض شيوخه البله » ان من يتبحر في فن النحو يستغني عما سواه من العلوم منقولة كانت او معقولة ، على انه « ويا للأسف » لم يبلغ من علياء هذا العلم الدرجة التي يتمناها رغماً عن كونه جديراً بان يدعى لجوجاً فيه منقطعاً اليه ، وطالما دعوته للانحراف عن هذه الخطة وأوضحت له المحجة الصحيحة ومحضت له النصيحة فلم ينتصح عاداً نصحي اياه ضرباً من الهراء الذي يجب ان يضرب به عرض الحائط ·

طلب مني هذا الصديق المرة بعد المرة ان أحبر نبذة في اعراب قول العرب « لا ابا لك » ونحوه وفي بيان ما يقصده العرب منها في اشعارهم ونثارهم قائلاً لي انه طالما جد واجتهد في الوقوف على ما قاله النحويون في إعرابها وعلى بيان ما يتوخاه العرب منها باحثاً عن ذلك في كتب اللغة واسفارها ومطولات كتب النحو فلم يفز من بحثه عنها بطائل يشفي غليله ويزيل ببيانه شكوله ·

امتنعت عن إجابة طلبه اولاً لعلمي ان البحث عما يتعلق بهذه الكلمة من جهة إعرابها عقيم لا ينتهي الى نتيجة يحسن السكوت عليها لان إعرابها في الواقع ونفس الامر جريء ان يعد من جملة المسائل المعقدة التي شغلت النحويين بحلها فكانت مزلة لأقدامهم معثرة لافهامهم · ثم بدا لي في طلب هذا الصديق ان أطلبه لأريه مما اتى به النحويون في إعراب هذه الكلمة — نموذجاً من تمحلهم وتلفافهم عله يعدل عن عقيدته بصوابية جميع اعتلالاتهم وصحة حججهم ·

ولا يخفى ان النحويين في اوائل العصر العباسي قد شطوا عن الغاية المقصودة من هذا الفن وتمادوا على الخلاف فيما بينهم حتى انهم انقسموا في كثير من مسائله الى بصري

وكوفي واستطال بعضهم على بعض بالطعن والتنديد ولم يقتصروا في مؤلفاتهم على بيان أحكام النحو وتقرير قواعده اجتزاءً منه بالقدر الذي يكفي لصيانة لسان العربي عن الخطإ في كلامه بل اطالوا القول عند ذكر كل حكم وقاعدة بما لفقوه من العلل المتناقضة والاسباب المتعارضة التي تدرك بادنى تأمل انها من التمحل والتلفيق في مكان سحيق ، مثلاً قالوا في الأسماء والأفعال المبنية انما بنيت لشبهها الحرف ·

كالشبه الوضعي في اسمي جئتنا والمعنوي في متى وفي هنا
وكنيابة عن الفعل بلا تأثر وكافتقار أصلا

فأطالوا البحث في بيان هذه الأسباب والعلل وطرحوا منها في طريق الطالب لقواعد النحو — أشواكاً تعتاقه عن الوصول الى غايته المقصودة له من هذا الفن ، وكأن النحويين حاولوا بذكر تلك العلل والاسباب ان يجعلوا فن النحو في الفنون المعقولة مع انه من الفنون المنقولة البحتة التي يجب التسليم بها كما يجب التسليم بالتعبديات التي لا مجال للعقل بادراك اسبابها ، كيف لا وان الاعرابي حينما كان يريد ان يفوه بالكلمة المعربة او المبنية يفوه بها صفواً عفواً غير ملاحظ ولا عارف ان يلاحظ سبب نطقه بها كذلك غير انه هكذا تلقاها من ابناء قبيلته واهل بجدته وهو لو سمع الفاظ النحويين وكلماتهم الاصطلاحية لأنكرها عليهم ولفهم منها غيرنا يفهمونه · فلو انك سألته عن معنى كلمة «البناء» مثلاً لما أجابك عنه بغير قوله: معناه « وضع شيء على شيء على جهة يراد بها الثبوت » او عن معنى كلمة « إعراب » لما أجابك بغير قوله معناها « الايضاح والافصاح عما في ضميرك » ·

خذ لذلك مثلاً ما حكاه الأصمعي عن اعرابي قال له : يا اعرابي أتهمز إسرائيل قال اني اذاً لرجل سوء ، وقال له أفتجر فلسطين قال اني اذاً لقوي · ومن هذا النوع حديث ابي الزهراء الوارد في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه اعرضنا عن ذكره لطوله ثم جاء المتأخرون ممن عني في علم النحو فألفوا فيه المتون المسهبة والحواشي المطولة ومشوا فيها على سنن أسلافهم في الاكثار من التعرض الى ذكر علل الاحكام وبيان اسبابها ، بل لم يكتفوا بذلك حتى أضافوا اليها ابحاثاً طويلة عريضة في مفاهيم عبارات المتون وشروحها مغلطاً بها بعضهم بعضاً فحشوا بها الكثير من الاخذ والرد في هذا الصدد حتى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كادت تكون كتب جدل ومناظرة لا كتب نحو وصرف فازدادت ضخامةً وعظمت حجماً وأصبح طالب علم النحو مضطراً الى تضحية قسم عظيم من حياته في دراستها ليحصل منها على خلاصتها المقصودة له منها وهي علم النحو فما كان مثله في الحصول على هذه الخلاصة من بين هاتيك الأبحاث المختلطة الا كمثل من يحاول استخلاص كتلة اسلاك ضئيلة بعثرتها الريح في اكداس من الشوك ٠

واذا أردت ان تتأكد صدق كلامي هذا فانظر في ألفية ابن مالك وشروحها وحواشيها وكتاب المغني وحواشيه وكتاب التصريح والهمع وشرحه وغير ذلك من الكتب المماثلة لهذه الكتب — يظهر لك صدق ما قلته ٠

على ان الامر الذي يزيد في صعوبة استخلاص المطلوب من هذه الكتب — ما تعمده مؤلفوها من اختصار عباراتها وصيغها وتعقيد تركيبها حتى شابه الكثير منها عبارات ملغز يقصد بها التعمية على من تحداه بحل لغزه ، فترى الطالب المسكين ، يتكبد في حلها عرق القربة ويستهلك في فهم المراد منها الوقت الطويل ٠

واني أقول ولا أخشى في قولي لومة لائم ان اللغة العربية اذا كان لها ما يعيبها فما هو شيء غير كتب نحوها التي تصورها في عين من يريد ممارستها ولا سيما اذا كان أجنبياً عنها — لغة مضطربة القواعد كثيرة الشواذ صعبة المراس لا يملك الطالب قيادها الا اذا وهبها جميع ايام حياته ، شاهدي على ذلك جملة كنت رأيتها في بعض الصحف الاخبارية قالها مستشرق في حق اللغة العربية خلاصتها : ان بقاءه هائماً على وجهه في مجاهل افريقية فوق رمالها النارية وتحت شمسها المحرقة — أهون عليه من ممارسة اللغة العربية والإحاطة بكتب نحوها ٠

انا لا انكر ما للكتب المطولة المؤلفة في علم النحو من الفوائد العظيمة لمن يطلب هذا الفن لذاته ليكون به نحريراً اختصاصياً فان بلوغه منه هذه الغاية يضطره الى استقصاء تلك الكتب وتتبعها والاستفادة منها وان ضحى بذلك معظم ايام حياته ٠

على ان جميع الامة العربية يكفيها وجود اختصاصي واحد او اثنين في فن النحو اذا كان وجود اختصاصي به معدوداً من فروض الكفاية التي اذا قام بها البعض سقطت عن الكل ٠

فأما طالب العلوم العربية الذي يشتغل بفن النحو لا لذاته بل ليتخذه آلة يتوصل بواسطتها الى غيره من باقي العلوم العربية — فهو غير محتاج في نيل بغيته هذه الى تلك الكتب المطولة التي تستغرق دراستها دهراً طويلاً من حياته بل حسبه ان يأخذ القدر اللازم من ذلك الفن من كتاب واحد يشتمل على ما لا بد منه من ابواب النحو وقواعده واحكامه على شرط ان يكون فصيح العبارة رشيق الألفاظ حسن التعبير معرضاً عن ذكر العلل والاسباب ومشاحنات النحويين ومعارضة بعضهم البعض كثير الأمثلة بحيث لا يذكر فيه حكم ولا قاعدة الا ويتبعها بمثل او أمثلة ايضاحاً لها وتسهيلاً لفهم الطالب وان لا يستغرق في قراءة هذا الكتاب اكثر من سنتين وان يكون الاستاذ الذي يؤخذ عنه هذا الكتاب فصيح اللسان بارعاً بصناعة التعليم مقتصراً في تقريره على ذكر اللباب دون القشور معرضاً عن الكلام الذي يقصد منه اظهار براعته ونبوغه في هذا الفن ، فمن لنا بمن يؤلف كتاباً هكذا في هذا الفن ومن اين لنا بمثل هذا الاستاذ الجليل ٠

هذا وقد آن لي ان أنجز لصديقي ما وعدته به من إعراب كلمة (لا ابا لك) وبيان ما يتعلق بها من بقية المطالب فأقول :

« إعراب لا اباالك باثبات الف ابا بلا تنوين »

اختلف النحويون في إعراب هذه الكلمة اختلافاً كبيراً وسلكوا فيه طرقاً شتى اختار منها في هذه العجالة الطريقة التي ارتضاها سيبويه والجمهور في إعراب هذه الكلمة دون بقية الطوائف مثبتاً على وجه التلخيص والاختصار بعض ما اورده النحاة فيها من الآراء التي لايخلو واحد منها من الانتقاد السالم من الانتقاد ٠

على انني ماخصصت هذه الطريقة بالذكر الا لأن النحويين اعتبروها امثل طريقة تستدعي اجتهادهم في حفظ سلامتها والاعتماد على صحتها دون باقي الطرائق التي يأباها الفن على زعمهم فأقول :

ذهب سيبويه وجمهور النحويين في إعراب هذه الكلمة (لا اباالك) الى ان (ابا) اسم للا التبرئة وهو مضاف معرب لفظاً منصوب بالالف بلا تنوين كما هو الحكم في اسم (لا) المضاف وان المجرور بعده مضاف اليه وان اللام زيدت بين المتضايفين لتأكيد معنى الاضافة وان خبر (لا) محذوف تقديره موجود مثلاً ٠

« الاعتراض على هذا الإعراب »

واورد على هذا الاعراب ان (ابا) حينئذ يكون معرفة باضافته الى المعرفة فكيف تعمل فيه (لا) مع انها لا حظ لها في العمل في المعارف كما انه لو قيل بعدم الإضافة لم يكن (ابا) معرباً اذ لا يعرب بالالف الا مع الاضافة لانه من الاسماء الستة ٠

« جواب هذا الاعتراض وانتقاد الجواب »

وأجيب عن ذلك كله بان اللام في هذه الكلمة معتد بها من وجه وغير معتد بها من وجه آخر ٠

فأما وجه الاعتداد بهـا فقد اضطرنا اليه كون اسم (لا) لا يضاف الى معرفة فلما وجد في هذا التركيب مضافاً اليها لان ابا من الاسماء الخمسة المعربة بالحروف لا تكون الا مضافة — اعتددنا باللام وقلنا جيء بهـا لتزيل صورة تلك الاضافة فصار اسم (لا) حينئذ نكرة لفظاً وهو المعتبر عند النحويين وان كان مضافاً حقيقةً معنىً ٠

واورد على هذا التأويل ان الاضافة اذا كانت على معنى اللام نقدر فيهـا اللام ولا تظهر بين المتضايفين الا شذوذاً في قوله :

يا بؤس للحرب التي وضعت اراهط فاستراحوا

واجيب عن هذا بان لام الاضافة في هذه الكلمة اي في كلمة لا ابالك — مقدرة وان اللام الظاهرة انما وجدت لتأكيد اللام المقدرة لا هي الخ ٠

« عدم الاعتداد باللام »

واما وجه عدم الاعتداد بهذه اللام فلان ما قبلهـا معرب بدليل ثبوت الفه لان الاسماء الخمسة لا تثبت الفها الا لاعرابها واسم(لا) هنا لا يعرب الا مضافاً ٠

« خلاصة القول في هذه اللام »

اقول تلخص مما سبق ان هذه اللام معتد بها من حيث إزالتها صورة الاضافة رعاية لاسم (لا) الذي يكون نكرة في المعنى وان كان معرفة في اللفظ وانها اي اللام غير معتد بها رعاية لاسم (لا) ايضاً لانه معرفة معرب بالحرف وهو لا يكون كذلك الا اذا كان مضافاً لانه من الاسماء الخمسة ٠

« اعترض آخر وجوابه »

واعترض ايضاً بان الالف في (ابا) تشعر باضافته وتعريفه واللام في (لك) تشعر بتنكيره وعدم اضافته وفي ذلك تضاد ظاهر . واجيب بان جهة كل مختلفة فالاضافة والتعريف من جهة المعنى والتنكير وعدم الاضافة من جهة اللفظ .

« اعتراض آخر »

مما أورد على هذه التقارير قول العرب (لا ابالي) (ولا اخالي) كقول الاعشى :

فأنت ابي ما لم يكن لي حاجة ... وان عرضت ايقنت ان لا ابالي

وقول الآخر :

وذي اخوة قطعت انساب بينهم ... كما تركوني مفرداً لا اخاليا

فان ابا واخا هنا معربان بالحروف وهو الالف مع ان شرط اعراب الاسماء الخمسة بالحروف ان تكون مضافة لغير ياء المتكلم فلو كانت الاضافة ملحوظة في هذا التركيب لم يكن اعرابها بالالف لانهما يكونان حينئذ مضافين لياء المتكلم بل يكونان واجبي الاعراب بالحركة الخ — الى غير ذلك من الاخذ والرد وتتابع الاعتراضات واجوبتها مما لو قصدت استقصاءه لملأت به كتيباً على حدته ترى فيه من ضروب التمحل والتعسف ما يؤيد لك قول القائل : (أضعف من حجة نحوي) كيف يذعن العقل لاعتبار وجود اللام تارة وعدم وجودها أُخرى وكيف يبنى على عدم الاعتداد بها اضافة ابا الى ما بعده واللام ماثلة امام العين ، وهل يجوز لك ان تجمع بين معنيين متضادين في حرف واحد بان تجمع بين النفي والاثبات في حرف (لا) فتقول مثلاً (لا اكتب) معناها اذا اعتددنا بـ (لا) نفيُ فعل الكتابة عني ومعناه اذا لم نعتدد بلاثبوتُ فعل الكتابة لي : هذا لعمر الحق من الفلسفة التي ينكرها المنطق ولا يخضع لها العقل . وهل يسعنا اذا اردنا تفسير الاعتداد باللام وعدم الاعتداد بها ان نفسرها بغير النية فنقول حينئذ اذا نوينا وجود اللام زالت صورة الاضافة واذا لم ننو وجودها بقيت الاضافة وهل يباح للنحوي ان يطبق اعراب هذه الكلمة على حديث « إنما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى » فيقول انما الاعراب بالنيات وانما لكل نحوي من الاعراب ما نوى .

أتدري يا صاح ما هو الباعث على قيام هذه الضجة العظيمة حول اعراب هذه الكلمة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أتدري ما هو السبب في ذلك كله هو وسوسة النحاة وعسلطتهم في الف (ابا) فلو انهم تسامحوا قليلاً وطابت نفوسهم باعراب هذه الكلمة على لغة من يقصر الاسماء الثلاثة اب اخ حم في جميع احوالها لخلصوا من تلك الضجة وطرحوا عن عواتقهم ذلك العبء الثقيل .

ان اعراب هذه الكلمة على لغة القصر هو مذهب ابي علي الفارسي وابن يسعون وابن الطراوة وهو مذهب لا بأس به لانه اقل تحملاً من مذهب سيبويه والجمهور وخلاصة ماقالوه فيه ان ابا جاءت على لغة من يقصر الاسماء الثلاثة اي يلزمها الالف في جميع احوالها ككلمة قفا ومنها قولهم ان اباها وابا اباها وقولهم مكره اخاك وعليها حديث ما صنع ابا جهل وقول ابي حنيفة لا قود في مثقل ولو ضربه بابا قبيس فاعراب هذه الكلمة على هذا المذهب ان نقول لا نافية للجنس وابا اسمها مبني على فتح مقدر على آخره في محل نصب لانها اسم لا ولك جار ومجرور متعلق بمحذوف هو خبر لا تقديره معلوم او موجود وان اسم لا حذف تنوينه للبناء .

وقد اورد على هذا المذهب اعتراضان اوردهما اصحاب مذهب سيبويه والجمهور في اعراب هذه الكلمة .

الاعتراض الاول : قولهم ان حذف التنوين من اسم (لا) ليس لكونه مبنياً بل لانه مضاف الى ما بعده لعدم الاعتداد باللام المقحمة بينه وبين المضاف اليه حذف منه التنوين كما حذفت النون من اسم (لا) في قولهم لا غلامي له لانه معرب لفظاً مضاف الى الهاء بعده لعدم الاعتداد باللام كما هو الحال والشأن في اسم لا اباك اه .

واجيب عن هذا بان غلامي في هذا المثال اسم للا مبني على فتح مقدر على الياء التي يعرب بها المثنى في حالة نصبه وله جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر لا تقديره موجود او معلوم فالنون المحذوفة منه هي عوض عن التنوين في الاسم المفرد وغلامي غير مضاف وانما حذفت منه النون شذوذاً قصد التخفيف فلا يعترض به على قول ابي علي ورفيقيه ان حذف التنوين من ابا للبناء ، وقد حذفت النون تخفيفاً في غير هذا المثال ايضاً كقولهم (لا يدي لامرئ) وقولهم ببضك ثنتان وبيغي مأيتا اي مأيتان .

الاعتراض الثاني : ان الذي يقول لا اباك جميع العرب والذي يقول مكره

اخاك ولا ابا لي ولا اخا لي بعض العرب ولا تخرج لغة قوم على لغة قوم آخرين ٠

وقد اجيب عن هذا الاعتراض بان يقال لمن اورده هل عندك علم قاطع بان الذي لفظ هذه الكلمات اول مرة هو من غير القبيلة القائلة بقصر الاسماء الثلاثة وما ادراك بان يكون اول ناطق بها فرد من افراد تلك القبيلة ثم تسامعت بها العرب فمنهم من قالها حسب لغة اول من قالها لانه اعتبرها جارية مجرى الامثال التي لا تغير ومنهم من لم يعتبرها كذلك فنطق بها حسب لغته فقال لا ابا لك ولا اخ لك ولا اب لي ولا اخ لي الخ ٠

بهذا الجواب ينتهي الخصام و يكون إعراب هذه الكلمة مسكي الختام ٠

« استعمال هذه الكلمة على أشكال مختلفة »

وردت هذه الكلمة في اشعار العرب وعباراتهم على اشكال مختلفة منها لا ابا لك ولا اب لك ولا ب لك ولا ابك ولا ابا لغيرك ولا ابا لشانئك ولا ابا لكم ولا ابا لابيكم ولا اباك ولا إب له ولا ابا له ولا ابا لي ٠

« ماذا يريده العربي من هذه الكلمة »

هذه الكلمة خرجت مخرج المثل تقال لمن له اب ولمن لا اب له وتستعمل للمدح بان يراد بها نفي نظير الممدوح لان أقرب ما يناظر الابن ابوه فنفي الأب نفي للنظير واستعملوه في موضع الذم بان يراد منه انه مجهول النسب واستعملوه بالتعجب والتفجع وعند الحث على اخذ الحق وعند الاغراء على الشيء وقد يقوله الرجل الجافي من العرب عند المسألة والطلب وربما قالها الرجل منهم للخليفة والامير كأن يقول له انظر في رعيتك لا ابا لك وقال المبرد وابن هشام اللخمي قولهم لا ابا له فيه غلظة وجفاء وأصله ان ينسب المخاطب الى غير اب معلوم شتماً له واحتقاراً به ثم كثر في الاستعمال حتى جعل في كل خطاب يغلظون فيه على المخاطب واستعملوه ايضاً لدفع العين وفي الحث على الاجتهاد في الامر لان من له اب وكل امره اليه واذا انتفى الأب انتفى من يكل اليه امره فعند ذلك يحصل له اجتهاد في تقويم امره ومعاشه ٠ وقال برهان الدين في النهاية اكثر ما يكون (لا ابا لك) في معرض المدح اي لا مكافيء لك غير نفسك ٠ وقد يستعمل في الذم كما يقال لا أم لك واستعمال لا أم لك في المدح غير مقبول ٠ وقال التبريزي :

وقول الاعرابي (لا ابا لك) كأنه يلوم نفسه وهي كلمة يستعملها العرب في تضاعيف كلامهم عند الجفاء والغلظة انتهت ·

عضو المجمع العلمي
كامل الغزي

فوائد لغوية

— أو —

« كلمات جديدة للاستعمال »

كتب بعض الفضلاء « ان من أعمال المجمع العلمي في ترقية اللغة العربية ان يبحث عن الألفاظ الضائعة التي يفيد استعمالها ولكنها مبعثرة في كتب اللغة ، فقد ذكر المرحومان احمد فارس واليازجي أن من هذه الألفاظ الكثير الموافق للمعاني العصرية والمطابق لاغراض الحياة لكن قلة استعماله أفضت الى نسيانه » ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فرأيت اجابة لنداء هذا الفاضل ان أنشر في صحفنا المحلية نموذجات من هذه الكلمات المنسية التي أشار باحيائها العلامتان احمد فارس واليازجي آخذاً على نفسي الاختصار فيما أنشره كي تخف قراءته على المطالعين · وارجو من محرري الصحف ان يخدموا لغتهم باقتباس هذه الكلمات وإحيائها بالاستعمال · وبذلك تشبع سريعاً · ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ·

(فعل ترمس) — كثيراً ما يحدث في بلد من البلاد شغب او فتنة فتمسك السلطة المحلية مثيري تلك الفتنة ويكون من جملتهم فلان · اما فلان هذا فيدعي لدى الاستنطاق: بانه كان قد (ترمس) في اثناء الفتنة اي انه تغيب عنها ولم يشهدها ·

ففعل (ترمس) فسّره القاموس المحيط بما قلنا وعزاه شارحه التاج الى (ابن الاعرابي) وتصريفه هكذا : (ترمس) فلان عن ذلك الشغب فهو (مترمس) متغيب عنه وفلان